نظرية النمو الذاتي

ونهضة إحياء العلوم في غربي أوربا

قبل أن يظهر غلاة العنصر النوردي ظهرت طائفة من المؤرخين تمجد القبائل التيوتونية التي طغت على الدولة الرومانية الغربية وأسست دول غرب أوربا الحديثة . وهذه الطائفة تؤكد نمو العقل في غربي أوربا نموًّا متصلاً متدرجاً قبل نهضة إحياء العلوم، وتعلله بأنه كان نموًّا ذاتيًّا وتشيدُ باستعداد هذه القبائل لتنمية الحضارة والثقافة . وقد يفهم القارىء من مؤلفاتها ان تلك النهضة لم تكن ثورة فكرية على الماضي ما دامت لها سوابق وحلقات متصلة أو منفصلة، وما دامت لها مراحل قبلها من نوعها، كما قد يفهم ان ذلك النمو الذاتي يقلل من أثر المؤثرات الخارجية . والحقيقة هي أن كل نهضة كبيرة في حياة الانسانية كانت نموًّا ذاتيًّا متدرجاً . ولكن عند حدّ معين تتعاظم المؤثرات وتتعجل نتائجها فتصير انقلاباً أو ثورة على الماضي كما إن النمو الذاتي لا ينفي عظم المؤثرات الخارجية ، فنمو الانسان الذاتي أو نمو الشجرة، لا ينفي إفادتهما من غذاء وماء وضياء ، وكلها أمور خارجة عن كيانهما . وإذا تتبعنا الثقافات والحضارات قديمها وحديثها وما يعتورها من تغير وانقلاب وجدنا ان النمو الذاتي ملحوظ في القديم منها والحديث ، ولكنه لا ينفي أن تكون مشتقة من ثقافات سابقة ولا ينفي أن تكون المؤثرات الخارجية السبب في كل مرحلة من مراحلها، كما كان الحال في نموّ الثقافة في غربي أوربا من عهد العصور المظلمة إلى عصر نهضة الإحياء ، فتأكيد فكرة النمو الذاتي في تعليل نهضة الإحياء في غربي أوربا بصفة خاصة فيه شيء من المغالطة إذ مهما عظمت المؤثرات الخارجية ومهما عظم الإقتباس من الثقافات والحضارات الأخرى ، فلا بد لكل ثقافة من نمو ذاتي، لأن القائمين بالحضارة والثقافة مخلوقات حيَّة نامية، وتورث نموها الثقافي . وهذا النمو الذاتي شأن الحضارات والثقافات حتى الصناعة المتكلفة القليلة الحيوية

فكيف لا يكون هناك الثقافات الكبيرة في الأمم العظيمة الاستعداد للنمو الثقافي . ولكنه مع ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن كل ثقافة مستمدة من ثقافة سابقة . ومهما كان استعداد قبائل التيوتون التي أسست دول غربي أوربا لتنمية الثقافة، فانه من المغالاة في التعصب للعنصر والجنس تهوين المؤثرات الخارجية، وكأن غلاة العنصرية يريدون أن تشذ حضارة غربي أوربا عن القاعدة العامة . ولا شك أن النمو الذاتي في ثقافة غربي أوربا مدين للحضارة والثقافة الرومانية والاغريقية والعربية ، وكل ثقافة من هذه الثقافات مدينة لحضارات أمم كثيرة سبقتها ، فكان الاغريق أساتذة الرومان من عهد اتصال الرومان بهم في مستعمرات الاغريق في جنوبي ايطاليا الذي كان يسمى بلاد الاغريق العظمى (ماجناجريشيا) الى أن غزا الرومان بلاد الاغريق في البلقان والشرق . ومن أجل ذلك صارت الثقافة التي نشرها الرومان في غربي أوروبا تسمى الثقافة الاغريقية الرومانية (جريكو رومان) وقد قضت قبائل التيوتون في العصور المظلمة على الكثير من معالم هذه الثقافة. ولكن بقيت بقية ظلت تنمو الى عهد النهضة . فالاستعداد التيوتوني للثقافة لم يكن يعمل في فراغ من الثقافة والحضارة . وعندما أسقطوا الدولة الرومانية الغربية ظلت الكنيسة المسيحية قائمة تنشر دعوتها بينهم وكانت ثقافة علمائها اغريقية رومانية، فقد نشأت المسيحية أولاً بين اليهود في عصر سادت فيه الثقافة الاغريقية في الشرق . وكان علماء اللاهوت يعتمدون على الفلسفة الاغريقية في محاولة تقريب العقائد المسيحية الى الأذهان ولو أنهم كانوا يفسرون آراء فلاسفة الاغريق تفسيراً يطابق عقائدهم . وقد استحوذ علماء المسيحية على ارسطوطاليس فقسروا آراءه فيما وراء الطبيعة تفسيراً يناسبهم واتخذوا من منطقه أداةً للمحاجة الدينية ، ولكن ذلك المنطق كان رياضة كبيرة للعقل، بالرغم من محاولتهم قصره على ما يوافق عقائدهم .

***

وبالرغم من أن ارسطوطاليس كان اغريقيًّا من العهود السابقة للمسيحية، فقد كاد يُعَدُّ الخروج على قوله حسب تفسيرهم جدفاً عظيماً، وقد خرج عليه أمثال روجر باكون الانجليزي

ولكنه خرج على ارسطوطاليس الباحث عما وراء الطبيعة لا على ارسطوطاليس الباحث عن خصائص الأشياء والأحياء ، وكانت لغة التعاليم اللاتينية . ولكن مادتها مشتقة من الثقافة الاغريقية ، وولوع روجر باكون بالبحث العلمي مشتق أيضاً من ثقافة الاغريق وتلاميذهم من العرب . كل هذا يدل أيضاً على ان استعداد التيوتون الثقافي في غربي أوروبا لم يكن يعمل في فراغ ثقافي، وكانت أمم غرب أوروبا بين حضارتين : الحضارة البيزنطية الوارثة لثقافة الاغريق وكتبهم، والحضارة العربية الوارثة لثقافة الاغريق والفرس والهند . فكان غربي أوروبا تحتضنه حضارتان إلى علاوة على مخلفات الرومان . وينسى الذين يحاولون تهوين المؤثرات الخارجية أثر هذا الاحتضان والاكتناف في جميع الثقافات من أقدم العصور كما يتناسون الأدلة اللغوية من أسماء تدل على اقتباس أهل غربي أوروبا الصناعات والفنون والعلوم ، ويتجاهلون الكتب التي كانت تدرس في جامعات غربي أوروبا في القرون الوسطى وأسماء مؤلفيها من الاغريق والعرب .

* * *

ومن الغريب انهم يفعلون ذلك بحجة الدقة في البحث العلمي والتمحيص، ولكن ليس من الغريب ذلك التنامي الذي يستوي فيه العالم والجاهل ، فانه من الحقائق المقررة في علم النفس ان النفس تنسى ما تود نسيانه ولو كان معروفاً ، وهذا أمر مشاهد في أمور الحياة اليومية . وقد انقاد لهذا المذهب بعض كبار الأساتذة الذين يحسنون أن يتهموا بقلة نصيبهم من الدقة في البحث وهم على نصيب وافر منه ، وهذا أيضاً أمر مشاهد في أمور الحياة اليومية . وقد انقاد لهذا المذهب بعض كبار الأساتذة الذين يحسنون أن يتهموا بقلة نصيبهم من الدقة في البحث وهم على نصيب وافر منه،وهذا أيضاً أمر مشاهد في الحياة . وليس بين المؤرخين من ينكر فضل جامعات القرون الوسطى أو المراحل التي سبقتها في تنمية ثقافة غربي أوروبا، ولكن الذي ينكر حقاً تفسير نظرية النمو الذاتي تفسيراً يخالف الحقائق بتجاهل الحقائق وتناسيها بتهوين أثر المؤثرات الخارجية في نمو الاستعداد الثقافي في غربي أوروبا . وقد ظل القليل من علماء غربي أوروبا علاوة على ذلك على بعض الالمام باللغة الاغريقية أو الكتب القليلة

المنقولة عنها مباشرة قبل النقل عن العرب . وكان تجار مدن ايطاليا على اتصال بالثقافة الاغريقية القديمة في برنصة . وأغرب البندقية بجيش من الصليبيين على الدولة البيزنطية وأسست بها دويلات ما لبثت أن زالت . وقد بدأ انتقال أدباء بيزنطية بكتبهم الى ايطاليا قبل استيلاء الاتراك العثمانيين على القسطنطينية . فالاتصال بين غربي اوربا وبين كتب الاغريق القدماء لم ينقطع انقطاعاً تاماً لا في وقت السلم ولا في وقت الحرب . ومن المعروف أن بعض مشاهير غربي اوربا تعلموا في مدارس العرب ، وعندما استولى الفونس السادس ملك قشتالة على طليطلة وجد ثقافة عربية متصلة بالثقافة الاغريقية القديمة وكان ينشط ويسر بأن يسمي حامي الثقافة وراعيها ، وذلك قبل عهد اضطهاد الاسبان للعرب . وقد ترجم ريموند رئيس أساقفة معهد الترجمة كتب الثقافة العربية وساهم اليهود في هذه الترجمة كما أن بعضهم انتقل إلى جنوبي فرنسا ونشر فيها الثقافة العربية . وعندما ورث الامبراطور فردريك الثاني مملكة النورمان في جنوبي ايطاليا وصقلية أسس جامعة في نابلي واعتمد في نشر الثقافة على عرب صقلية ويهودها ، وانتشرت الحركة الفكرية في بولونا وبادوا من جامعات ايطاليا وفي مونبلييه وباريس وجامعات انجلترة ، وكانت تدرس كتب ارسطوطاليس وبعض كتب افلاطون وأفلوطين وفرفوريوس الصوري وأبقراط وجالينوس وابن سينا والفارابي والرازي وابن رشد وابن باجة وغيرهم . ومن الظلم تهوين أثر الكتب الاغريقية بأن يقال إن البحث عنها يدل على نضج الذهن قبل الاستعانة بها فراحل هذا النضج من أثرها . ومن الظلم تهوين أثر الثقافة العربية بأن يقال إن بعضهم أخطأ في فهم أو نقل بعض آراء الاغريق أو أنهم اشتغلوا بمحاولة تحويل المعادن الى ذهب أو بالتنجيم فقد كشفوا في الفلك والكيمياء والطب وأدخلوا في الصناعات والزراعات أشياء كثيرة لا تزال أسماؤها العديدة في اللغات الاوربية مشتقة من العربية ، وغيرها وضعت لها أسماء جديدة . والخلاصة هي أن النمو الذاتي لاينفي عظم المؤثرات الخارجية ، وإنه أمر ملحوظ في كل نهضة ثقافية لا في غربي أوربا وحده ، وان نهضة الإحياء بالرغم من مراحل نموها كانت ثورة فكرية شديدة ولدت الهلع والرعب لبعض عواقبها .

ع . ش